الفضاءِ المكاني
في التصنيف الموسوعي

د. قيس كاظم الجنابي*

● **توطئة:**

الفضاء، لغة: المكان الواسع من الارض؛ قال رؤبة:

أفرخَ قَبضُ بيضها المُنقاضِ
عنكم كراماً بالمقامِ الفاضي

وقد فضى المكان، وأفضى اذا إتسعَ[1]. ومن الناحية الفلسفية، يعد مع الزمان شكلين لوجود المادة بحيث يكون الفضاء والزمان وحدة من المطلق النسبي، فهما يوجدان وجوداً مطلقاً، بمعنى انهما موجودان وجوداً موضوعياً مرتبطاً بوجود المادة. وهما نسبيان لان خصائصهما الملموسة تعتمد على حالة المادة[2]. ويقترب تعريف الفضاء من تعريف الخلاء الذي يوصف بالبعد المفطور، وهو موهوم لدى بعض المتكلمين، ذلك لانه هو « الفضاء الذي يثبته الوهم ويدركه من الجسم المحيط بجسم آخر كالفضاء المشغول بالماء او الهواء في داخل الكوز فهذا الفراغ الموهوم هو الذي من شأنه انه يحصل فيه الجسم وان يكون ظرفاً له عندهم، وبهذا الاعتبار يجعلونه حيزاً للجسم وباعتبار فراغه عن شغل الجسم إياه يجعلونه خلاءً، فالخلاء عندهم هو هذا الفراغ مع قيد ان لا يشغله شاغل من الاجسام فيكون لا شيئاً محضاً لان الفراغ الموهوم ليس بموجود في الخارج بل هو أمر موهوم عندهم اذ لو وجد لكان بعداً مفطوراً وهم لا يقولون به. والحكماء ذاهبون الى امتناع الخلاء. والمتكلمون الى امكانه،وما وراء المحدد ليس ببعيدٍ لا لانتهاء الابعاد بالمحدد، ولا قابل للزيادة والنقصان لانه لا شيء،محض فلا يكون خلاءً

*اكاديمي / العراق

بأحـد المعنيين بلا الخلاء، انما يلزم من وجود الحاوي مع عدم المحوي وذا غير ممكن»[٣].

ويعنـي الفضـاء، احيانـاً، فضـاء الاحداث دون ان تتجـاوز هذا المفهـوم الى الدلالات، أي مقاربـة الفضاء في علاقتـه بالحدث الخبري، فكل حـدث هـو بالـضرورة يـدور في الزمن والمـكان وقد يتنوع فيـه المـكان.[٤] وغالباً ما يستعمل الجغرافيـــون كلمتي (الفضـــاء) و(المكـان) بمعنى واحـد أو بمعنى متقارب؛ فالكتب المدرسية ورسائل البحث العلمي تعجُّ بهذين المصطلحين. الا انه قليلٌ، وتحت درجة القياس، ممـا يدفع القراء الى التسـاؤل حول معنى هذين المصطلحين؛ وهل هما مترادفان؟

(١)

لا يحصـل التصنيـف الموسـوعي الا بعـد مرحلـة نضج وتطور معـرفي وحضاري، لهذا يعـد الجاحظ (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م) من اوائل المصنفـين الموسـوعيين، وخصوصـاً في كتابه (الحيوان) الـذي يعد موسـوعة ثقافية مهمة تجمع بين الادب والعلوم الاخرى كعلوم الحياة والبيئـة والجغرافيـة والتاريـخ.. وغيرها. ثم تلاه آخرون في تصانيـف لها اثرها ووقعها في الموروث العربي – الاسلامي؛ كما كانت لكتاب (الشـفاء) لابن سـينا (ت٤٢٨هـ/١٠٣٦م) اهميتـه الموسـوعية والعلميـة الكبـيرة، فعلى الرغـم من كونه يهتم بشـكل خـاص بالطب، لان مصنفه كان طبيباً، الا انه كتاب مشـحون بطاقة ادبية وفلسـفية ومعارف متعددة تعبر عن سـعة أفقـه ونضج عقلـه، وتعبـيره عن عصره خير تعبير.

ومن القـرن الرابع الهجري وما بعد، اخذت كتب الموسـوعات / دوائر المعارف في الظهور بعد ان وضع اسسها ابو نصر الفارابي، محمد بن محمد بن طرخـان(ت ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م)، فكان للأدب قصب السبق على العلوم الاخرى، ومن هـذه المصنفات كتـاب (مفاتيح العلوم) للخوارزمـي، ابي عبداللـه محمد بن احمد بن يوسـف(ت ٣٨٧هـ/ ٩٠٠م) الذي كتبه لابي الحسـن عبيد اللـه بن احمد العتبي، وقسـمه الى مقالتـين، تشـتملان عـلى اغلـب العلوم في (٩٣) فصـلاً في (١٥) باباً؛ والكتاب عبارة عن مدخل للعلوم والفنون جامع لأوائلها، يحتوي عـلى موضوعـات ومفاهيم علمية، فهو اشـبه بكتاب (حدود العلوم وتعريفها)؛ ولذلك سماه مفاتيحهـا، وهـو جزيـل الفائـدة، ثم صنف العرب كثيراً من الموسوعات بعد ذلك[٥].

ولم تبرز كتب الموسـوعات بقوة، الا في القرن الثامـن الهجري، فكانت سـمة لـه، في جميع حقـول المعرفـة، ويعتقـد احد الباحثـين انها كانت تخدم طبقـة معينة من الامراء والحكام المتنورين، فضلاً عن اشـباع رغبـة طبقة من الاغنياء المثقفين، كانت امثـال تلك التصانيف ذات فائـدة علميـة واضحـة بالنسـبة لرجال الادارة، كمـا انهـا كانـت ذات فائـدة كـبرى للباحثـين عن المعرفة نظـراً لأنها كانت تعالج مختلـف نواحي الثقافة في ذلـك العصر. ومن ابرز تلـك الموسـوعات: كتاب (نهايـة الارب) للنويـري (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، وكتـاب (مسالك الابصـار) لابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، و كتاب(صبـح الاعشى) للقلقشـندي (ت ٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م)[٦]. بينما يعتقد آخر أن «من اهم مظاهر سيادة التقليد وعـدم الاجتهاد تحوّل التأليـف العلمي لكتب مبتكرة الى التأليف في الموسـوعات،لان طبيعة الموسـوعات جمعٌ لمتفرق. وهي تحتاج الى جدٍّ وصبر اكثر مما تحتاج الى كبر عقل»[٧].

وكذلك يعد كتاب (احياء علوم الدين) لابي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ/١١١١م) كتاباً موسوعياً جمع فيه بين التصوف (العرفان) والادب واللغة والعلوم الاخرى؛ هذا فضلاً عن كتابات الفارابي الذي عُرف بفلسفته وعلو همته في الموسيقى والادب. كما تعد الكثير من المصنفات البلدانية ذات طبيعة موسوعية، لأنها تجمع بين ترجمة المدن وبين العلوم الاخرى كالتاريخ والتراجم والادب واللغة وعلوم متعددة يحتاجها المصنف البلداني، ولعل كتاب (معجم ما استعجم) لابي عبيد البكري (ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) خير مثال على ذلك؛ بينما يعد كتاب (معجم البلدان)، ورديفه(معجم الادباء) لياقوت الحموي من المصنفات الموسوعية المهمة، فضلاً عن مصنفات بلدانية فائقة القيمة، مثل (مراصد الاطلاع) لابن عبد الحق البغدادي، الذي اقتفى به خطى ياقوت الحموي في كتابه(معجم البلدان) وما جرى مجراه مثل كتاب (الروض المعطار) للحميري الذي اهتم البلدانيات الاندلسية وما شاكلها.

وغالب كتب الرحلات تعبر عن ثقافة الرحالة انفسهم وهم يجوبون الامصار والاصقاع والبلدان، من اجل تشخيص الصفات الانسانية ذات البعد الانثروبولوجي؛ بما يقربنا من موضوع النقد الثقافي، لأنه يقترب بنا نحو الموسوعية والدراسات الثقافية، التي تكشف عن الجانب المضمر والخفي من حياة وعادات وامزجة وهويات المجتمعات؛ لهذا تعد مصنفات مثل كتاب (مروج الذهب) للمسعودي من المصنفات الموسوعية، والتي تلتقي مع ادب الرحلات الغنية بهذا الموضوع مثل رحلة ابن جبير، ورحلة ابن بطوطة.

و يغدو التصنيف البلداني / الجغرافي – بحكم تخصصه بالاطار المكاني – ذا صفة موسوعية خاصة، لأنه يركز على الجوانب التي لها صلات وطيدة بحياة الناس والمخلوقات المتعددة، فضلاً عن اهتمامه بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

(٢)

لم تظهر المصنفات الموسوعية التي تهتم بالبلدانيات، الا في القرون المتأخرة؛ اذ افردت في ثناياها ابواباً خاصة، على الرغم من وجود مصنفين موسوعيين من وقت مبكر، لأسباب تتعلق بالنضج الثقافي والمعرفي، وقد اخذت مصر الحصة الاكبر في هذا الشأن، ومن تلك المصنفات:

١-نهاية الارب في فنون الادب، للنويري: احمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م).

٢-مسالك الابصار في ممالك الامصار، لابن فضل الله العمري: احمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م).

٣-صبح الاعشى في صناعة الانشا، للقلقشندي: احمد بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م).

ثم ظهرت كتابات موسوعية اخرى تناولت الفضاء البلداني، ولكنها ركزت على الجانب التاريخي؛ ولم تكن بالمستويات التي تعرضت لها المصنفات الآنفة الذكر. بيد انها لم تأتِ بجديد، ولكنها استوعبت بطريقة ما المصنفات التي سبقتها في شتى الميادين: البلدانيات، والشخصيات، والجوانب الاجتماعية (العادات والتقاليد)، والثقافية، والاقتصادية (كالصناعات والحرف والمهن)؛ والتي سردت اهم المراحل التاريخية وابرز الحكام والولاة والاحداث التاريخية، فجاء رصدها للجانب البلداني بمثابة صهر للمعلومات السابقة

وتبويبهـا والتعريف بها. ومـع ذلك يمكن ان نعتبرهـا مجرد التفاتـة هامشـية للجغرافيا، على الرغـم من مركزية هذا العلـم واهميته في حياة الانسـان وتقدمه في الاحاطـة بالمناخات المؤثـرة في التطـور الحضاري النوعـي البعيد عـن الانتقائية.ويعتقـد احد الباحثـين كتاب النويري اوسع موضوعاً،وكتاب العمري اوسع في الجغرافيـا والتاريـخ، وكتاب القلقشـندي ألصق بالكتابة وأدواتها ولوازمها[٨].

● كتـاب (نهايـة الارب في فنـون الادب) للنويري

(١)

مصنـف الكتاب هو شـهاب الدين احمد بن عبدالوهـاب بن احمد بن عبدالوهاب بن عبادة البكري النويري الشـافعي[٩]. وهو احد رجال الملك النـاصر محمد بن قـلاوون، تولى نظارة الجيش في طرابلس، واشتهر بكتابه الموسوعي (نهاية الارب في فنـون الادب) في نيف وثلاثين مجلداً، تناول في خمسـة فنون رئيسة، كل فن في خمسـة ابـواب، تضمن الفـن الاول الارض والجبال والبحار والانهار، والاقاليم وطبائعها وخصائصهـا، واختـلاف سـكانها والمبانـي والمعاقـل ونحـو ذلـك. وهو يقابل مـا يعرف اليوم بعلم الفلك والظواهر الجوية والجغرافية الطبيعيـة، او التاريـخ الطبيعـي .امـا الفـن الثاني فموضوعه الانسـان وطبائعه واعضاؤه وعواطفه[١٠].

كان النويري مصنفاً «جامعاً لمختلف العلوم والفنون، متضلعـاً في العلوم الدينية، خبيراً في كتابة الانشـاء والرسـائل الديوانية، بوصفها مهنة مارسـها هو بنفسـه، وهو صاحب نظر بالغ في التاريخ والجغرافية ملم بالأنساب إلماماً يجعلـه ينقد من تنـاول هذا الموضـوع (...)، وهو دقيق النظر باللغـه الادبية كلّها، متذوق للشـعر واخذ منه بنصيب ولو كان قليلاً» [١١]. لـذا كان الرجـل منطقياً موضوعيـاً الى درجة قصوى في توزيـع كتابه وتبويبه وتقسـيمه وجمـع المعلومات فيه بحسـب خطـة معينة ومنهج منسّق[١٢].

(٢)

اهتمت المصنفات الموسوعية المهمة بالجوانب البلدانيـة، فقد بدأ القسـم الاول/ الباب الاول: في السـماء وما فيها،وفيه خمسة ابواب، واهتم بالأيـام والمناخ، وجعل القسـم الرابع على عدة فنـون، اولهـا(في الارض، والجبـال، والبحار والجزائـر والانهـار، والعيـون، والغـدران)؛ وفيه سـبعة ابواب. بدأه في مبدأ خلق الارض، فقسـم الارض الى سـبعة اقاليم مقتفيـاً آثار بطليموس؛ لذا نجده يعقب حين يذكر مجالات أي اقليـم بجملة (وزعـم بطليموس)، او(ذكر بطليموس)؛ كما اسـتعان بالشـعر في وصف الارض.

ابـرز ما يلاحـظ على النويري انه يشـير الى مصـادره التي اسـتقى منها مادتـه العلمية، الخاصـة بالبلدان؛ لذا ذكر ابن حوقل مصنف كتـاب (صـورة الارض)، وقدامـة بـن جعفر وكتابه (الخـراج وصناعة الكتابة)، والجاحظ وكتابـه (الامصار)، وابا عبيـد البكري وكتابه (المسالك والممالك)، والبشـاري وكتابه (نزهة المشـتاق)، وابراهيـم بـن وصيـف وكتابـه (العجائب الكبير)، وابن زولاق وكتابه (فضائل مصر)، والمسـعودي وكتابه (مـروج الذهب)، وابن بسـام وكتابه (الذخيرة في محاسـن اهل الجزيـرة)، والفتـح بـن خاقـان في كتابيـه: (مطمح الانفس)و(قلائـد الجمان)، والأزرقي (اخبار مكة)، والشهرسـتاني في كتابه (الملل

والنحـل)، وابـن الاثـير في كتابـه (الكامـل)، والحسـن بن ابراهيم في كتابه (تاريخ مصر)، وكذلك محمد بن حبيب والاصمعي،والثعالبي، ووهـب بن منبـه، وكعب الاحبـار، والواقدي، وابن الجوزي... وغيرهم.

(٣)

بدأ النويري كتابه بخطبة ذات صبغة دينية، ثم اشـار الى عمله، فقال: «وكنت ممن عدل في مباديـه، عـن الالمـام بناديه؟ وجعـل صناعة الكتابة فنَنَهُ الذي يسـتظل بوارفه، وفنّه الذي جُمع له فيه بين تليده وطارفه (...) ورغبت في صناعـة الآداب وتعلقت بأهدابها، وانتظمت في سـلك أربابها، فرأيت غرضي لا يتمُّ بتلقيها من أفواه الفضلاء شفاهاً، وموردي منها لا يصفو ما لم أُجرد العزم سفاهاً»[١٣]. بينما جاء القسم الرابـع من الفن الاول خاصاً بالأرض والجبال والبحار والجزائـر والانهار والعيون، وهو على سـبعة ابـواب، كما تضمـن القسـم الخامس طبائع البلاد، واخلاق سـكانها، وخصائصها، والمبانـي القديمة، والمعاقل والقصور والمنازل، وهو على خمسـة ابواب، وهو يتعلـق بالبلدان وصلتها بالإنسان والمجتمعات.

وحـين بلغ نهايـة مقدمته لهذا الكتاب،اشـار الى ان مـا ورد فيه ما هـو الا ما غلب على ظنه «ان النفوس تميل اليه، وان الخواطر تشـتمل عليـه (...) لكني تبعت فيه آثار الفضلاء قبلي، وسلكت منهجهم فوصلت بحبالهم حبلي، فإن يكن اعـتراض، فعلى عُلاهم لا عـليَّ العار. وقد علمت أنّه من صنّف كتاباً فقد أُستهدف،واصمَّ الاسماع وإن كان لبعضها قد شنّف»[١٤].

لقد جاء الباب الرابع من الفن الاول مشتملاً على ذكر الاقاليم السـبعة، مقتفياً خطى بطليموس حول ما ذكره بشـأنها، ثم ذكر وصف الارض، فذكـر الجبـال والبحـار والجزائر مشـيراً الى المعمور من البحيرات المالحة المشهورة وما بها من العجائب، وذكر العيون والانهار والغدران، ووصف البرك والدواليب والنواعير والجداول.. وغيرهـا. وهو مـا يخالف ما ذكـره في مقدمته من انه تلقاها من افواه الفضلاء شـفاهاً، وانما اسـتقاها من المصنفات التي سبقته، وانه عوّل على الاكثار من الشـواهد الشعرية؛ فكان اديباً اكثر منه كاتباً موسـوعياً، ممـا يعني ان مهنة الكتابـة التي عمل بهـا في دواوين مصر، كانت وراء هذا التوجـه، لان الكتابة الديوانية تحتاج الى اسـلوب خـاص، وهو الاكثـار من تضمين بعـض الكتـب والرسـائل الشـواهد المتعددة كالاقتبـاس مـن القـرآن والحديـث، وتضمين النصوص الادبية شـعرها ونثرهـا، وهو ما له صلة باجتـذاب المتلقي، وبخاصة عندما تكون المخاطبات بين ذوي السلطان كالملوك والامراء؛ مما يدلل – بلا شك – على عمق تجربة المصنف ونمـو قدراته الثقافية، وسـعة اطلاعه، ليكون مؤهـلاً للكتابة في موضوعات موسـوعية، كان مـن ثمارهـا هـذا الكتاب الـذي يشـير الى ان النويـري كان سـباقاً الى ذلـك في عـصره، ثم تلاه ابـن فضـل الله العمـري والقلقشـندي، ومن هنا جاءت أهميـة الكتاب، والتي كان لها اثرهـا في ترويج سـمعة الكتـاب، وعلو همته، وقوة بصيرته، وعمق توثيقـه، ورقي تنظيمه، فكان شـاهداً حقيقياً على خصبه في التصنيف الموسوعي لدى العرب.

(٤)

اسـتحوذت الجوانـب الاجتماعيـة على حيز مهـم من وصفيات النويري، مع انه اورد ذلك على وفق رؤية شـاملة غايتهـا الاحاطة بحياة الانسـان وما حولها، وما اكتسـبه الانسان من

معـارف وفنون؛ ويمكـن القـول ان الجوانب الانثروبولوجيـة كانـت هـي المحـرك الرئيس لتصنيف مثل هذا الكتاب، لان مركزه الانسان، ومصـدر قوتها هـو، ولان النقـد الثقافي يُعنى بحضـارة الانسـان وثقافتـه، فانـه يمكن ان يكـون مدخـلاً لدراسـة الانسـان ومجـالات حياته من خـلال هذا الكتاب؛ ذلـك «أنّ النقد الثقـافي لا يدور حـول الفن والادب فحسـب، وانما حـول دور الثقافة في نظام الاشـياء بين الجوانـب الجماليـة والانثروبولوجية، بوصفه دوراً يتنامى في اهميته، ليس لما يكشف عنه في الجوانب السياسـية والاجتماعية فقط، بل لأنه يشـكل كذلك النّظم والانساق والقيم والرموز، ويصوغ وعينا بها»[١٥].

والنويـري ينقل عن كتاب (نزهة المشـتاق) للإدريـسي، مـا يخـصّ بطيحـة نهـران التي يخـرج منهـا النيـل؛ فقـال: «تسـمّى بحيرة كُورى منسـوبة لطائفة من السّودان يسكنون حولها، متوحشـون: يأكلون من وقع اليهم من الناس»[١٦]. واشار الى (نهر الكَنْك) اعتماداً على العُتْبي في (تاريخ اليمني)؛ فقال: «وهذا النهر الذي يتواصف الهنود قدره وشرفه، فيرون من عين الخلد التي في السـماء مُغترفـه؛ اذا أُحرق منهم ميـت ذروره فيه بعظامـه، فيظنون انّ ذلك طُهر لآثامه؛ وربما اتاه الناسك من المكان البعيد فيُغرق نفسه فيه»[١٧].الا ترى أن الفضاء المكانـي لديه يقـترن بالإنسـان..! وخصوصاً بالأمور التي تتعلق بالأديان والعقائد، والفرق ومـا شـابه ذلك لأنهـا تلفت نظـر الباحث الى طبيعة حياة الانسان.

كمـا نقـل عن كتـاب (الامصـار) للجاحظ، فقال:«الصناعة بالبصرة، والفصاحة بالكوفة، والتخنيث ببغداد، والطّرمذة بسمرقند، والغيّ بالـرِّي، والجفاء بنيسـابور، والحُسـن بهُراة، والمـروءة ببلـخ، والبخـل بمـرو، والعجائـب بمصر»[١٨]. وهذا ما يشـير الى ان منقولاته عن البلـدان تقترن – غالـب الاحيـان – بعلاقتها بالإنسان، وبما يضمره الكاتب من نسق ثقافي؛ لـذا قال في مقدمة الكتاب: «ومـا اردت فيه الا مـا غلب على ظنّي ان النفـوس تميل اليه، وان الخاطر يشتمل عليه»[١٩].

(٥)

اذا كانـت كتـب البلدانيـات تؤثـر الاهتمـام بالعجائـب والغرائـب، الى جانـب عنايتهـا بالوصـف الجغـرافي، لان طبيعـة الوصف لها صلـة بالفضـاء المكاني ومؤثراتـه الاجتماعية والاقتصاديـة ومـا يعلـق بالهويـة الثقافيـة وخصوصاً الدينية، ذلك ان الوصف يخضع لما يعـرف بـ(الكوزموغرافيا cosmography) التي تعني في واقع الامر«الكتابة عن الكون» من وجهة نظر جغرافية. وقد سـاد استخدام هذا المصطلح في اوروبا في العصور الوسطى واوائل العصور الحديثة كبديـل لمصطلح «الجغرافيا لا سيما في الكتب الجغرافية التي تهتم بوصف مظاهـر الكون الطبيعيـة و «العجائبية» اكثر من اهتمامها بوصف البلدان. وهذا ما نقصده بالضبط من اسـتخدامها لهذا المصطلح في هذا البحث، اي اننـا نقصد المصنفـات الجغرافية التي اهتمت بالجوانـب الطبيعية للأرض ذات الصفـة الكونيـة اكثـر من اهتمامهـا بوصف البلـدان»[٢٠]. لهـذا بـدأ النويـري بالكواكـب السـبعة والابراج ووصفهـا، ووصف الظواهر الكونية العديدة كالكسـوف والخسوف، ومن خـلال وصفه للكواكب عـرج على عبادتها؛ اي انـه يؤثر علاقة الانسـان بالكـون مثلما يؤثر علاقته عـلى العلاقـة بالمـكان، مسـتفيداً من

كتاب(الملل والنحل) للشهرستاني، وعبادة بعض الهنود للشمس واعتقادهم أن الشمس مَلك من الملائكة، وان لها نفساً عقلاً، وكذلك اشار الى عبادة البقر وزعمهم بانه ملك من الملائكة «يستحق التعظيم والعبادة، واليه تدبير هذا العالم السفلي، ومنه نضج الاشياء المتكونة واتصالها الى كمالها؛وبزيادته ونقصانه تعرف الازمان والساعات»[٢١]. ومن خلال تعرضه للكواكب المتحيزة، تعرف الى عبّاد الروحانيات، ومذهب الصابئة، ثم ذكر بيوت الهياكل واماكنها ونسبتها الى الكواكب، واتخاذ الاصنام على هيئة الكواكب السبعة «وعظمّوا هذه الاصنام التي صنعوها، وزعموا انهم اذا عظمّوها تحرّكت لهم الكواكب السبعة العلوية بكل ما يريدون»[٢٢]. كما اهتم بالسحاب وحدوثه، وحدوث الثلج والبرد والامطار وما ورد في اوصافها، وكذلك النيازك والصواعق والرعد والبرق، وما قيل في الهواء والنار وعبادتها وبيوت النيران،وانواع النيران عند العرب وما قيل في وصف النار وتشبيهها، وما قيل في وصف الشمعة والشمعدان والسراج والقنديل،والليالي والايام والشهور والاعوام والفصول والمواسم والاعياد.

لقد حفل بكل ذلك قبل ان يبلغ موضوع وصف الارض والجبال والانهار... وغيرها. فلما بلغ موضوع الانهار والعيون التي يتعجب منها ذكر ما نقله عن كتاب (مباهج الفكر ومناهج العبر) عدّها من العجائب؛ فأشار الى ان بأرض الهند مكاناً «فيه عين ماء لا تقبل نجساً ولا قذراً، وان أُلقي فيها شيء من ذلك، اكفهرت السماء وهبت الرياح واكثر الرعد والبرق والمطر. فلا تزال كذلك الى ان يُخرج منها ما طُرح فيه»[٢٣].

●كتاب (مسالك الابصار) لابن فضل الله العمري

(١)

مصنف الكتاب هو احمد بن يحيى بن فضل الله بن المجلي بن دعجان بن خلف العمري، العدوي. ولد سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧١م، وقيل سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م بدمشق. احد رجالات الزمان كتابة وترسلاً، وتوصلاً الى غايات المعالي وتوسُّلا، شاعر اديب مصنف، افاض الصفدي في ترجمته واثنى عليه وذكر شيئاً من شعره، له عدد من التصانيف ابرزها كتابه (مسالك الابصار في ممالك الامصار)،وهو كتاب حافل لم يعلم لاحد مثله، فضلاً عن كتبه: (فواصل السَّمر في فضائل آل عمر)، و(الدعوة المستجابة)، و(صبابة المشتاق)، و(ديوان) شعر كامل في المدائح النبوية،و(سفر السَّفرة)، و(دمعة الباكي)، و(يقظة الساهر) قرأه الصفدي عليه، و(نفحة الروض)..وغير ذلك.

نظم عددا كثيراً من القصائد والاراجيز والمقطعات والدوبيت والموشح، والبليق والزجل، وأنشأ كثيراً من التقاليد والمناشير والتواقيع ومكاتبات الملوك؛ فلما وقع الطاعون بدمشق سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م، قلق وهمع وزمع وتطاير كثيراً وراعى القواعد الطبيعية، وانجمع عن الناس وانعزل وعزم على الحج، ثم بطّل ذلك وتوجه بزوجته ابنة عمه الى القدس الشريف، فماتت ودفنها بالقدس، وحضر الى دمشق، فتوفي بها سنة ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٧م ودفن عند والد بدر الدين بالصالحية [٢٤].

كان يقطر كلامه فصاحةً وبلاغة، وتندى عبارته انسجاماً وصياغة، وينظر الى غيب المعاني من ستر رقيق. اما نثره فلعله في ذروة

كان زوج الفاضل (القاضي) لها حضيضاً، احد رجال الكلمة الذين يقومون بالأدب علماً وعملاً في النظم والنثر ومعرفة بتراجم اهل عصره، ومن تقدمهم على اختلاف طبقاتهم وبخطوط الافاضل واشياخ الكتبة [٢٥].

وهو مؤرخ في معرفة الممالك والمسالك وخطوط الاقاليم والبلدان، وامام في الترسل والانشاء، عارف في ممالك الامصار.[٢٦] كما كان يتمتع بثقافة عريضة وذوق ادبي مرهف، فقد وفاه هذا من ضيق الافق الذي يسوق اليه الوسط الدواويني الذي مضى فيه كل حياته[٢٧].

(٢)

يشبه كتاب (مسالك الابصار في ممالك الامصار) لابن فضل الله العمري الى حدٍّ ما كتاب النويري (نهاية الارب في فنون الادب) مع شيء من الاختلاف في التبويب؛ فقد قسم ابن فضل الله كتابه (مسالك الابصار) الى قسمين:

الاول، في الارض، اي في الفضاء المكاني، وفن الجغرافيا.

والثاني، في سكان الارض، وهو ينقسم الى ما يتعلق بالحيوان الناطق، والحيوان غير الناطق.

وقد بحث في الاجزاء الاولى منه في التاريخ الطبيعي والجغرافية، وما يتبع ذلك من مسالك الممالك، والرياح وعجائب البر والبحر، ومواقع مشاهير البلاد.

وقد اختص بمنازل العرب كما كانت في زمانه وافاض في وصف سكان الارض، وقسّمهم الى سكان الغرب، وسكان الشرق، وترجم لرجالاتهم في شكل التفاصيل بين البلدين، كما نظر في غير الناطق والجماد، وبحث في العلوم الطبيعية كالمعادن والحيوانات وما اشبه ذلك[٢٨].

بدأ المصنف كتابه بلمحة جغرافية وفقاً لما رسمه صاحب كتاب (الجغرافية) في تقسيم المعمور الى قسمين:شرقي وغربي، حين يتلاقيان فيه على خطين وهميين في الطول والعرض على زوايا قائمة، مقتدياً ابا سعيد المغربي في كتابه (المُشرق في حُلى المَشرق)، ثم ذكر سبب تأليف ابي لكتابه (الشهب الثاقبة)، فردَّ عليه بانّه منقوص عليه في اكثره، كما اشار الى ابن سينا في المدن المشرقية؛ لهذا قارن بين دمشق وغرناطة، ثم ذكر لقاء ابن سعيد بالعماد السلماسي، واشار الى موضوع مهم هو اخلاق الناس واشكالهم والوانهم، واستخدم الغلمان في التجسس وذكرالاسكندر، ثم حاول ان يناظر بين الاشخاص في المشرق والمغرب، فينتصر لأهل المشرق، لان فيهم الخلفاء الاربعة وغيرهم من الخلفاء المرضيين، كما اشار الى دولة العبيديين (الدولة الفاطمية) والادارسة وآل حمود والموحدين وسلطنات المغرب وبلاد السودان والاندلس واوروبا. ولأنه مشرقي شامي ينتصر للمشارقة فيقول:«والاميرعندهم في المشرق يباح له ضرب الطبول، ولا يباح ذلك في المغرب الا لمن يلي مملكة او من يحلّ محله من عظماء قواده»[٢٩].

(٣)

اشار ابن فضل الله الى مصادره التي استقى منها مادته في شأن البلدان، ملمحاً الى دقته في ذلك حين قال:«ولم انقل الا عن اعيان الثقات، ومن ذوي التدقيق في النظر، والتحقيق في الرواية»[٣٠]. كما ذكر عدداً ممن أخذ عنهم من امثال الادريسي وابن سينا وغيرهما؛ مؤكداً لنا ان مادته استقاها من بطون المصنفات،

فيقـول: «ولقـد طالعـت الكتـب الموضوعة في احـوال الاقاليـم وما فيهـا، فلم اجد مـن قَنّنَ احوالها، ومثّل في الافهـام وصورها، لان غالب تلـك الكتب لا تتضمن سـوى الاخبار القديمة، واحـوال الملـوك السـالفة، او الامـم البائـدة، وبعض المصطلحات ذهبـت بذهاب أهلها ولم يبق في مجرّد ذكرها عظيم فائدة، ولا كبير امر. وخير القول اصدقه»[٣١].

خصص ابن فضل الله الجزء الاول من الكتاب للأمكنـة والبلـدان، وبـدأه بقوله: «امـا بعد، فلمـا كانـت النفـوس لا يصلحهـا الا التنقـل من حـال الى حال، والتوقل على شرفات الشـد والارتحال، للاطلاع على الغرائب، والاسـتطلاع للعجائب»[٣٢]. مشيراً الى العجائب او ما يسمى بالغرابـة؛ وهـو واحد مـن صفـات الكتابات البلدانية التي تلتقي مع معطيات النقد الثقافي، لان الغرابة تشكل نسقاً مضمرا في سياقات هذا العلم، الذي غالباً ما يقترن بالرحلات.

لقـد خصص ابن فضل الله القسـم الاول من الكتـاب لذكـر الارض وما اشـتملت عليـه براً وبحراً، فذكر اسـماء التراب والغبار والبحار.. وما اليه؛ مشيراً الى اسـطورة الام الكبرى التي توازي صورة عشـتار او غيرهـا، كما في قوله: «ان الارض ام البـشر»[٣٣]. كمـا ضمّـن كتابه شـيئاً من سـيرته الذاتية واشـعاره وصحبته للسـلطان، مع بعض الحكايات المسرودة التي ترتبط بحيـاة الرحالـة وتعبير عـن انعكاس صورة الفضاء المكاني على حياة الناس لتصبح حكايـة سردية، وهو نـوع مـن التأليف الذي يسـتخدم الحكاية وسـيلة للإثارة والتشـويق يسـاهم في بث التوجه الغرائبي من اجل بلوغ اهـداف التأليف، كما فعل مع حكاية الشـاعر ابـن الحداد الذي مرّ بديـر ريفة، وهو مصعد الى قوص ليحج من جهة عيذاب، فرأى ديرانية اسـمها (نويرة). كأنّما اذكاها في قلبه نظرها، وشـبّها في جوانحـه مـن خدودهـا المحمّـرة نضرها[٣٤]..كما ذكر الديارات السـبع بمصر، وديـارات العـرب في الحيرة، ومنهـا دير حنّة، وهـو مـن بناء نوح مشـيراً الى انه هكـذا نقله ولا يعرف من هـو[٣٥]. وهـو الآن يقوم مكانه جامع الحنانة المشهور الذي يقال ان فيه رأس الحسين إبن علي.

ويعـد المعلـم الدينـي، بوصفـه تعبـيراً عن ثقافـة الجماعـات الدينية، احد ملامـح اللقاء بـين المكاني والنقـد الثقافي، لهـذا نجده يهتم بالديارات والحانات وهياكل الاقدمين والبيوت المعظمـة عند الامـم، فعدّها على سـبعة، اولها بيـت اللـه الحـرام وسـابعها بيـت النُّوبهار، ويسمى المتولي لسدانته (برمك)، وكانت ملوك الفرس تعظمـه وتعظم متوليه وآلت ولايته الى ابي خالد البرمكي [٣٦].

ومـن هنـا يمكـن ان نكتشـف العلاقـة بين الفضاء المكاني والاشـياء المختلفة، ومع هوية الانسـان، التـي تعبر عـن خصوصيتـه التي تتجسـد في ثقافتـه المحلية، ورمـوزه الدينية، والاجـواء القدسـية التي تحيط بـه، وهذا بحد ذاته يعد نوعـاً من الاقتراب من معطيات النقد الثقافي الذي نقـل ميدان البحث من نقد النص الى النقد الموسوعي.

● كتاب (صبح الاعشى في صناعة الإنشـا) للقلقشندي

(١)

مؤلـف هـذا الكتاب هـو، ابو العباس شـهاب الديـن احمـد بـن علي بـن احمد القلقشـندي المـصري. زيـل القاهرة، سـمي بالقلقشـندي نسـبة قرية بجـوار قيلوب تسـمى قلقشـند،

ولد سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م، كان قوي الحافظة، تولى كتابة الانشاء سنة ٧٩١هـ، في دولة المماليك بمصر، وعانى هذه الصناعة ودرسها، صنّف عدة تصانيف مهمة ابرزها هذا الكتاب الموسوعي الكبير، و (ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر)، وهو مختصر لصبح الاعشى، اختصره لنفسه، (نهاية الارب في معرفة انساب العرب)، و(قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان)، و(حلية الفضل وتربية الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم) في الانشاء والادب. توفى سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م[٣٧].

(٢)

يعد كتاب (صبح الاعشى في صناعة الانشا) من الكتب الموسوعية المهمة التي ركزت على الكتابة والادب من اجل توكيد طابعها الموسوعي وتكشف عن تفردها في موضوعها، وكان للخوارزمي، محمد بن احمد بن يوسف (ت ٣٧٨هـ/٩٧٧م) قصب السبق في هذا الميدان[٣٨]، ثم اكمل النويري هذا الدور في كتابه السابق(نهاية الارب في فنون الادب)، ثم تلاه ابن فضل الله العمري في كتابه(مسالك الابصار في ممالك الامصار)؛ وهذه واحدة من خصائص القرون المتأخرة في البلدان التي شهدت استقرارا سياسيا نسبيا، مثل مصر والشام ولم تتعرض الى الاحتلال التتري او المغولي، ولم تخضع لحكم الاعاجم المباشر، وبخاصة الفرس والترك. ذلك ان حكم المماليك لمصر اعطى فسحة للثقافة العربية الاسلامية لإدامة زخم التأليف والبحث والتعبيرعن الهوية العربية المضطربة احياناً، ولكنها اعطت ثمارها في هذه المصنفات ذات الطابع الموسوعي. بينما تقلص هذا الانتاج في بغداد بعد سقوطها بيد التتار سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. ولكن ما يلاحظ ان هذه الموسوعية التي يتمتع بها كتاب (صبح الاعشى) تعتمد اعتماداً كبيراً على كتاب (مسالك الابصار في ممالك الامصار) لابن فضل الله العمري، ولكنه يتميز عنه بدقة التبويب وبأن الغرض من تصنيفه ان يكون مرجعاً لكتاب الدواوين، وديوان الانشاء[٣٩].

يعتبر كتاب (صبح الاعشى) اهم كتاب في بابه بعد كتاب(مسالك الابصار)، وبعد كتاب (تثقيف التعريف)لابن ناظر الجيوش الذي صنفه مؤلفه ليكون تتمة لكتاب (التعريف بالمصطلح الشريف)لابن فضل الله؛ وقد اطلع القلقشندي على الكتابين وانتقد نقصهما.اما كتابه (صبح الاعشى) فيمتاز بإحرازه لكل ما يتعلق بالإنشاء، وادواته وشروطه. ويتكون من سبعة مجلدات كبيرة كأنها موسوعة في الادب، وفيه مقالة بالمسالك والممالك، وعلم تقويم البلدان ينطوي على وصف الممالك، سياسياً، وجغرافياً بمصر والشام وفارس، ومقالة في الولايات وطبقاتها وما بلغ من التفاوت بينها في الرتب، والبيعات ومعناها وانواعها[٤٠].

تكسب بعض المصنفات الموسوعية اهميتها من كونها ذات اطار شمولي يجمع بين الجغرافية والتاريخ والادب والعلوم الاخرى، لهذا حفلت بمعلومات قيمة ورؤى ثرية، عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بشكل واضح وذي طابع موسوعي له ابعاده المهمة في قراءة المرحلة التي كتب فيها، وغالب هذه المصنفات كتبت في العصور المتأخرة، اي بعد القرن السادس الهجري، وهي تتوفر على حصيلة ثقافية مهمة نستطيع ان نستند عليها، وغالبها في مصر، لأنها شهدت استقراراً نسبياً، ومن ذلك (خطط المقريزي)، و(نهاية

الارب)للنويري، وهـي مصنفات اولت الفضاء المكانـي اهمية خاصة، تميز القلقشـندي فيها لأنه اهتم بالكتابـة وادواتها ومعاملاتها، وهو مهتـم بالجانب الادبي كما هـو حال النويري، مـع تركيـز اهتمامه عـلى الوراقـة والكتابات الديوانية.

(٣)

ابرز ما يلاحظ على اهتمام الكاتب في موضوع البلدانيات،هو الاشـارة الى مصـادره المختلفة بطريقـة ما، ومنهـا: (تقويـم البلـدان) لابي الفداء، و(اللباب في تهذيب الانساب)لابن الاثير، و(الـروض المعطـار) للحميري،و(العزيـزي) وهو كتاب (المسالك والممالك) للحسن بن احمد المهلبي(ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)، و(والانسـاب) للسمعاني (ت٥٦٢هـ/١١٦٦م)، و(التثقيف) لابن صاحب الجيوش الآنـف الذكر، و(صورة الارض)لابن حوقل، و(سرورالنفس) للتيفاشي، و(تاريـخ دمشـق) لابـن عسـاكر، و(رسـم المعمـور)، و(تاريـخ صفـد) للعثمانـي... وغيرها[٤١].

لقـد اهتـم القلقشـندي بفضائـل البلـدان وعجائبهـا، وبمعتقدات النـاس؛ محاولاً طرح وجهة نظره حولها، وهـي ملاحظات اتصفت بالنقد والتمحيص والمقارنـة بين المصادر من اجل الوصول الى الحقيقة، وقد جاء هذا الاهتمام بالبلـدان من خلال الاهتمـام بالممالك وطريقة حكمها؛ فقد تناول فضل بلاد الشام وخواصها وعجائبها وحدودها وابتداء عمارتها وتسميتها وما يلحق بها، كما تناول القضايا الاقتصادية، فذكر اسـماء الانهر والروافد وابرز معالم تلك البلدان؛ مما يشـير الى انه يمتلك رؤية موحدة ومنهجاً واضحاً ومتميزاً في هذا الشـأن، بسبب اكتمـال صورة المناهج العربيـة في هذا القرن، وبسبب النزعة الموسوعية في التصنيف ونتيجة التراكـم المعرفي والنشـاط التأليفـي والاهتمام ببحث الموروث، وذلك بعد وجود معاهد راسخة في التعليـم كالجامع الازهر، اسـتمرت الحياة الثقافيـة واسـتمر اسـتقبال الطلبة وعشـاق المعرفـة، مما كان له تأثـيره في انتاج مثل هذه المصنفات ذات الطبيعة الموسوعية.

(٤)

تركـزت المقالـة الثانيـة مـن الكتـاب حول موضـوع المسـالك والممالـك، فكانـت بأربعة ابـواب: الباب الاول في ذكر الارض على سـبيل الاجمال، وهو في ثلاثة فصول. فقال في الفصل الاول الخـاص بشـكل الارض، واحاطة البحر بها: «اما شـكل الارض فقد تقرر في علم الهيئة ان الارض كُروِّية الشـكل والماء محيط بها من جميع جهاتها الا ما اقتضته العناية الالهية من كشـف اعلاها لوقوع العِمارة فيـه؛ وقيل هي مسطحة الشكل؛ وقيل كالتُّرس؛ وقيل كالطّبل، والتحقيـق الاول وبكل حال فالمـاء محيط بها من جميع جهاتها»[٤٢].

امـا في الفصـل الثانـي مـن البـاب الاول من المقالـة الثانية، فـكان في البحـار حيث يتكرر ذكـره بذكر البلـدان في التعريف بها والسـفر اليهـا، بينمـا كان الفصـل الثالـث في كيفيـة اسـتحراج جهـات البلـدان والابعـاد الواقعة بينهـا. ومن هنـا جاء وصف البلـدان خاضعاً لمنهجيـة خاصة بهـا، لهذا نجـده لا يركز على الوصف من اجل الوصف، وانما يبرز الجوانب المتعلقـة بالشـؤون الاداريـة والكتابيـة؛ فهو بالتـالي وصـف يتمركز حـول الجوانـب التي تقربه مـن النقـد الثقـافي، لاهتمامـه بالأمور الاجتماعية والثقافية، لأنه يسير على وفق نسق من الخطـاب المضمر الذي يتتبع سـير حركة

التاريخ، وسير حركة الاحداث المتعلقة بنضج عملية التصنيف وخطط المؤلفين التي تعكس نضج ثقافتهم واكتمال ادواتهم في الكتابة وثراء الجانب المعرفي لديهم؛ مما يعني تلقيهم العلم في معاهد متخصصة لها دراية بالبحث والتصنيف والمراجعة، ومعرفة وافية بالمناهج وكيفية الاستفادة من المرحلة ثقافياً. ومن هذا المنطلق فان الاهتمام بالجوانب ذات الطبيعة العجائبية والمعرفية بدا واضحاً، كما في وصفه لبلاد الشام حين عرّج على تراثها المسيحي؛ فقال: «اما خواصه فان الاماكن التي تعظمها الامم على اختلاف عقائدها كالصخرة التي هي قبلة اليهود، والقيامة التي يحجُّها النصارى من سائر اقطار الارض، وطور نابلس الذي تحجّه السامرة؛ وبمدينة صور كنيسة تعتقد طائفة من النصارى ان لا يصح تمليك ملوكهم الا منها»[٤٣]. في اشارة الى (حَمّة طبرية) التي تُقصد للاستشفاء، وفيه العفاريت بحمص التي تعتقد أن «اذا اخذ شيء من تراب حمص وجبل بالماء وألصق بداخل تلك القبة وترك حتى يجفّ ويسقط بنفسه من غير ان يلقيها احد ثم أخذت ووضع منها شيء في بيت لم يدخله عقرب، او في قماش لم تغربه»[٤٤].

كما اشار الى سواحل الشام كغزة ويافا والرملة، واسباب تسميتها؛ وهي اشارات معززة بذكر المصادر والاحالات التاريخية، مع الاهتمام بالمدن المقدسة؛ فهو يستقي مادته عن بيت المقدس من كتاب (الروض المعطار) للحميري، وان اول من بنى بيت المقدس ووري موضعه يعقوب وقيل داود، ثم احال الى كتاب (تقويم البلدان) الذي يشير الى ان الذي بناه هو النبي سليمان بن داود(ع)، وبقي حتى خرّبه بختنر، فبناه بعض ملوك الفرس.[٤٥]

ثم يسترسل في تقصي المصادر والاختلاف فيما بينها بروح الناقد المهتم بالاستفادة ممن سبقه، فلما وصل الى ذكر عمل بعلبك، وهي من اعمال الشام، اشار الى تسميتها باسم الاله بعل، او كما سماه صنم، ثم يشير الى ما ورد في كتاب (مسالك الابصار)، فيقول: «هي مختصرة من دمشق في كمال محاسنها وحسن بنائها وترتيبها، بها المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا والبيمارستان والاسواق الحسنة، والماء جارٍ في ديارها واسواقها»[٤٦]. وهو وصف يقترب منه في وصف مدينة حلب. ويتميز بانه تعرّض للمالك والبلدان الاسلامية وغيرالاسلامية؛ وبالذات بلاد الروم، وما يسمى الآن بأوروبا الشرقية، مثل بلاد البلغار والقياصرة، كما اهتم بالممالك القديمة؛ وبهذا أحاط إحاطة شاملة بجغرافية بلاد الشرق وما جاورها، نظراً لتشابه تلك الامصار في المناخ، وفي التضاريس. كما نالت بلاد الحجاز وبلاد اليمن اهتمامه، لأنها من الامصار العربية الاسلامية، ولكنه من النادر ان يشير الى جهود البلدانيين الذين كان لرحلاتهم الجغرافية الاثر البالغ في وصف البلدان وبيان ابرز ملامحها، واعتقد أنه بلغ من النضج المعرفي والمنهج التصنيفي بما يمكنه من استقاء وصف من الكتب، من دون العودة الى الرواة والرحالة بشكل مباشر.

(٥)

ولم يكتف بذكر البلدان واهميتها الاجتماعية والحضارية، وانما حول ابراز الجوانب الاقتصادية، حينما عرّج على ذكر الجبال والانهار والنباتات؛ بما يرفد الجانب الحضاري فاعليته لأنه ينسجم مع النسق الذي يضمره النقد الثقافي، فهو بالتالي له

تأثـيره في تمثـل الرؤيـة الموسـوعية، كمـا في اشـارته الى الانهـار العظـام بالشـام، كنهـر الفرات ونهر حماة ونهر الاردن ونهر العوجاء ونهر جيحان وبعض البحيرات؛ مما يشـير الى اهمية العامل الاقتصادي الذي يعد احد اسباب اهتمامه بالجبـال والاماكن التي تتمتع باهمية زراعية خاصـة، لذا نجده يهتـم بوصف مياه الحجـاز وجباله وزراعته، فيقـول: «ففيه من الحبوب المزروعة البُرّ والشعير والذّرة والسُّلت، وجميعها تُزرع على المطر، وربما زُرع بعضها على ماء العيون، والشعير والذرة اكثر الحبوب وجـوداً، ويُـزرع فيـه عـلى العيـون البطيخ: الاخضر والاصفر والقِثّاء، والباذنجان، والدُّباء، والملوخيـا، والهندبـاء، والفجـل، والكُـرّاث، والبصل، والثّوم»[٤٧].

كمـا ذكـر مخاليف مكة وقراها، واشـار الى اسـمائها واقتصادهـا واطوالها؛ لـذا قال عن الطائـف: «وهـو بلـد خصيـب كثـير الفواكه المختلفة مما يشابه فواكه الشام وغيرها، وهي طيّبة الهواء الا انها شديدة البرد حتى انه ربما جمد بها لشدة بردها»[٤٨]. وسمّى بغداد باسم (بَغـداذ) وهو إسـمها القديم، وذكـر ابوابها، واشار الى ما بها من اسواق ودور كثيرة للرعية وهي كأكبر مدينـة تكون.[٤٩] ثم وصف معالم بيوتهـا؛ فقـال: «ومن بيوتها مـا هو مفروش بالآجر ايضاً ملصـق بالقير وهو الزفت، ولهم الصنائـع العجيبـة في التزويـق بالآجـر وبها وجـوه الخـير والجوامع والمسـاجد والمدارس والخوانق والربط والبيمارسـتانات والصدقات الجاريـة ووجوه المعونـة وناهيـك انها كانت دار الخلافـة ومقر ملـوك الارض ومنها قلائد الاعناق، وترابها لَمَى القُبل وإثمد الاحداق»[٥٠]. وهو يشير من خلال وصف البلدان والمسالك الى النفائـس العليّة القـدر، والعجائب الغريبة الذكـر، والمتنزهـات المرتفعة، مسـتقياً مادته مـن مؤرخـي البلدانيات مـن الذين سـبقوه، لكنـه أشـار الى متنـزه الأُبلة، و شـعب بوان؛ فقال:«وقد تقدم ان نهر الأُبلة نهر شـقّه زيادٌ مقابلة نهر معقل، وبينهما البساتين والقصور العاليـة والمبانـي البديعـة، يتسـلل مجـراهُ، وتتصل بُكرهُ وعشـاياهُ، ويظله الشجر وتغني به زمر الطّير»[٥١]. كما اشـار الى نهر السُّوس (الاقـصى) إشـارة محمّلـة بفكـرة اقتصادية واضحـة، حين قـال عنه: «وهو نهـر يأتي من الجنـوب والشرق من جَبل يُعرف بجبل لَمْطة، ويجري الى الشـمال ويمرُّ على مدينة السّـوس من شماليّها، ويزرع على جانبية قصب السّكر والحِنّـاء وغير ذلك كما يُزرع في مصر، ويجري حتى يصبُّ في البحر المحيط الغربي»[٥٢]. فذكر زرعها وفواكهها ومواشيها وطيورها وصيدها، وبالذات طير الغرنوق الذي دعاه بصيد الملوك هناك، كما في مصر والشام، اما وحوشها فذكر منها الحُمر والبقر والنّعام والغزال، والمها وغير ذلـك؛ ولم يفته ان يتطرق الى الاوزان والمكاييل والاسـعار، حيث جمع بين الجانب الاقتصادي والجانـب الاجتماعي والاثني، حينما تطرق الى بلاد النصارى وبلاد الروم مثل الالمان والبلغار.. وغيرهما، متحدثاً بروح السائح الشامل المحمّل بموقف منهجي وعلمي واضح.

• الخاتمة

مـن خلال ما سـبق ذكره يمكن ان نسـتنتج، ان المصنفات الموسـوعية الكـبرى التي ظهرت في العصور المتأخرة، في الامصار التي يسـتولي عليهـا التتـار، عـبرت عـن نضج حضـاري، وحاجـة ماسـة الى هـذه التصانيـف لغرض

تيسير مهمة البحث والتمحيص في المصنفات الكثيرة اختصاراً للجهد والوقت، وغالب هؤلاء المصنفين الموسوعيين كانوا من الكتاب في دواوين تلك الامصار، وقد اخذت الكتابات الديوانية مساحة واسعة منها، وان ابرز ما عبر عنه هؤلاء الكتاب هو الاهتمام بالجانب الجغرافي، لانه الاطار المكاني الذي يرون انهم بحاجة اليه، كما ان القارىء بحاجة اليه، ولعل الحافز لمثل هذه التصانيف هو ما سمعوه من ضياع واحراق وتغريق الكثير من هذه المصنفات عند احتال المغول لبغداد وفقدان الهوية الثقافية الريادية لها، فأرادوا التعويض عن تلك الخسائر بهذه الطريقة.

ان التصنيف في مجال الجغرافيا مر بمراحل عديدة قبل ان يكون جزءاً لا يتجزأ من اي كتابات ذات طبيعة موسعة او موسوعية. وقد قدمت هذه الكتابات خدمة كبيرة للباحثين واغنتهم عن البحث في كم هائل من المصنفات، وقدمت معرفة خالصة للثقافة العربية الاسلامية.

● **الهوامش**

(١) ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م): لسان العرب، تصنيف يوسف خياط (دار لسان العرب، بيروت،د.ت)، مادة (فضا).

(٢) النوره چي، احمد خورشيد:مفاهيم في الفلسفة والاجتماع (دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م)، ص ١٩٦.

(٣) الشريف الجرجاني: علي بن محمد الحسني (ت ٨١٦هـ/ ١٤١٣م): التعريفات (مط: البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٥٧هـ)، ص٩٠.

(٤) ابن جبار، سعيد: الخبر في السرد العربي، الثوابت والمتغيرات (المكتبة الادبية، شركة النشر والتوزيع- المدارس، الدار البيضاء، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م)، ص١٣٠.

(٥)زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية، مج١(دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م)، ص ٥٤٠.

(٦)خصباك، شاكر: في الجغرافية العربية، دراسة في التراث الجغرافي العربي (دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٨م)، ص١٢.

(٧)امين، احمد: ظهر الاسلام (دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، د.ت)، ج٤/ ص١٩٥.

(٨)امين: ظهر الاسلام،ج٤/ ص ١٩٦-١٩٧.

(٩)المقريزي: تقي الدين احمد بن علي(ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م): السلوك لمعرفة الملوك، نشره محمد مصطفى زيادة، ج٢ ق٢(مط: لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٢م)، ص٣٦٣-٣٦٤.

(١٠) زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، ص ٢٣٦.

(١١) الندوي، د. عبد الحليم: منهج النويري في كتابه «نهاية الارب في فنون الادب»، بحث- ودراسة مقارنة- ونقد (دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص ٤٧.

(١٢) الندوي: منهج النويري، ص٢٧٢.

(١٣) النويري، شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م): نهاية الارب في فنون الادب، تح: د. مفيد قميحة، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م) ج١، ص٤-٥.

(١٤) النويري: نهاية الارب،ج ١/ ص ١٦-١٧.

(١٥) بعلي، حفناوي: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، المنطلقات.. المرجعيات (الدارالعربية للعلوم ناشرون- الاختلاف، بيروت- الجزائر،١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م)، ص٢١٩.

(١٦)النويري: نهاية الارب،ج١/ ص ٢٤٤.

(١٧)النويري: نهاية الارب،ج١/ ص٢٥٣.

(١٨)النويري: نهاي الارب،ج ١/ ص ٣٤٤. الطرمذ: هو الرجل الذي لا يحقق في الامور، اي الذي له كلام وليس له فعل. ابن منظور: لسان العرب، مادة (طرمذ).

(١٩) النويري: نهاية الارب،ج١/ ص ١٧.

(٢٠) خصبـاك، شـاكر: الجغرافية عنـد العرب (دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة،د.ت)، ص٩٣.
(٢١)النويري: نهاية الارب،ج١/ ص ٥٠.
(٢٢)م.س،ج ١/ ص ٥٥.
(٢٣) م.س، ج١/ ص ٢٥٤.
(٢٤)الصفـدي، صـلاح الديـن خليـل بـن أيبك (ت ٧٦٤هـــ/ ١٣٦٢م): الـوافي بالوفيـات، تـح: احمـد الارناؤوط وتركي مصطفى (دار احياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م)، ج٨/ ص١٦٣-١٧٤.
(٢٥) الكتبـي، محمـد بـن شـاكر (ت ٧٦٤هـــ/ ١٣٦٢م): فوات الوفيات، تح : د. احسان عباس، (دار صادر، بيروت، د.ت)، ص١٥٧-١٦١.
(٢٦) الزركلي، خير الدين: الاعلام، قاموس تراجم (دار العلم للملايين، بيروت،ط٦، ٢٠٠٥م)،ج ١/ص ٢٦٧.
(٢٧) كراتشـكو فسـكي، اغناطيـوس: تاريخ الادب الجغـرافي العربـي، ترجمـة: صـلاح الديـن عثمـان هاشـم،مراجعة: إيغـور بلياييـف (جامعـة الـدول العربية، القاهرة، د.ت)،ج ١/ ص ٤١٠.
(٢٨) زيـدان: تاريـخ آداب اللغـة العربيـة، ج٢/ ص٢٣٨.
(٢٩) ابـن فضـل الله، احمـد بن يحيـى العمري (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م): في الانصاف بين المشرق والمغرب، قطعـة من مسـالك الابصار في ممالـك الامصار، تح : زينب طاهر ساق الله (دار المدار الاسلامي و دار اوبا، طرابلس في ليبيا – بيروت، ٢٠٠٤م)، ص ٢٤٠.
(٣٠) ابـن فضـل اللـه: مسـالك الابصـار في ممالـك الامصار، تح : احمد زكي باشا، (مط: الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م) ج١، ص٢ .
(٣١) ابن فضل الله: مسالك الابصار،ج ١/ ص ٢.
(٣٢) ابن فضل الله: مسالك الابصار،ج ١/ ص ١.
(٣٣) ابن فضل الله: مسالك الابصار،ج ١/ ص٤٤.
(٣٤) ابن فضل الله: مسالك الابصار،ج ١/ ص ٣٨٤.
(٣٥) ابن فضل الله: مسالك الابصار،ج ١/ ص ٣١٢.
(٣٦) ابن فضل الله: مسالك الابصار،ج ١/ ص٢٢٣.
(٣٧) ابـن العماد الحنبلي، أبو الفـلاح عبد الحي بن العمـاد (ت ١٠٨٩هـ/ ١٧٧٥م): شـذرات الذهب اخبار من ذهب (المكتـب التجاري، بـيروت، د.ت)، ج٧/ ص١٤٩.
(٣٨) بروكلمـان، كارل: تاريـخ الادب العربي، ترجم بإشراف محمود فهمـي حجازي، ق٢(الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م)،ج ٤/ ص ٣٣٣.
(٣٩) ينظر: كراتشكو فسكي: تاريخ الادب الجغرافي، ج١/ ص٤١٦.
(٤٠) زيـدان: تاريـخ آداب اللغـة العربيـة ، ج٢/ ص١٤١-١٤٢.
(٤١) ينظـر: حاجـي خليفـة، مصطفى بـن عبدالله (ت ١٠٦٨هـ/١٦٥٨م):كشـف الظنون عن اسـامي الكتـب والفنون (دار احياء الـتراث العربي، بيروت – استانبول، د.ت)، ج٢/ ص ١٦٦٥،ج ٣/ ص٢٦٦.
(٤٢) القلقشـندي، احمـد بـن عـلي (ت ٨٢١هـــ/ ١٤١٨م): صبح الاعشى في صناعة الانشـا، تح : محمد حسين شمس الدين، (دار الفكر و دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت) ج٣، ص ٢٢٨.
(٤٣)ا لقلقشندي: صبح الاعشى،ج٤/ ص ٧٥.
(٤٤) القلقشندي: صبح الاعشى،ج ٤/ ص ٧٥-٧٦.
(٤٥) القلقشندي: صبح الاعشى،ج ٤/ ص ١٠٥.
(٤٦) القلقشندي: صبح الاعشى،ج ٤/ ص ١١٣.
(٤٧) القلقشندي: صبح الاعشى،ج ٤/ ص٢٥٤.
(٤٨) القلقشندي: صبح الاعشى،ج ٤/ ص ٢٦٤.
(٤٩) القلقشندي: صبح الاعشى،ج ٤/ ص ٣٣٣.
(٥٠) القلقشندي: صبح الاعشى،ج ٤/ ص ٣٣٤.
(٥١) القلقشندي: صبح الاعشى،ج ٤/ ص ٤٠٨.
(٥٢) القلقشندي: صبح الاعشى،٥ج/ ص ١٦٩.

Spatial space in the encyclopedic classification

By: Prof. Dr. Qais Kadhim Al–Janabi
Researcher from Iraq

Abstract

The books of the encyclopedias did not emerge strongly until the eighth century AH. It was characteristic of all fields of knowledge. One scholar believed that they served a certain class of enlightened princes and rulers, as well as satisfying the desire of a class of rich intellectuals. Clear for management men. Among the most prominent of these encyclopedias: the book (Nahayt Al–Erb) of the Nuweiri (d. 733 AH / 1332 AD), and the book (Masalek Al Absar) of Ibn Fadlullah al–Omari (d. 749 AH / 1348 AD) and the book (Sobh al–A'shi) of al–Qalqashandi (828 AH / 1424 AD).

Other encyclopedic writings on urban space emerged, but they focused on the historical aspect; they were not at the levels of the above–mentioned works. But it absorbed in a way the works that preceded it in various fields: countries, personalities, social aspects (customs and traditions), cultural and economic (such as industries, trades and professions); which listed the most important historical stages, the most prominent rulers, Tabulation and definition. However, it can be seen as a marginal marginalization of geography, despite the centrality of this science and its importance in human life and its progress in surrounding the climates that influence qualitative, non–selective cultural development. One scholar believes that Nuweiri's book is the broadest subject, and Al–Omari is wider in geography and history, and the al–Qalqashandi book is written in writing, its tools and supplies.